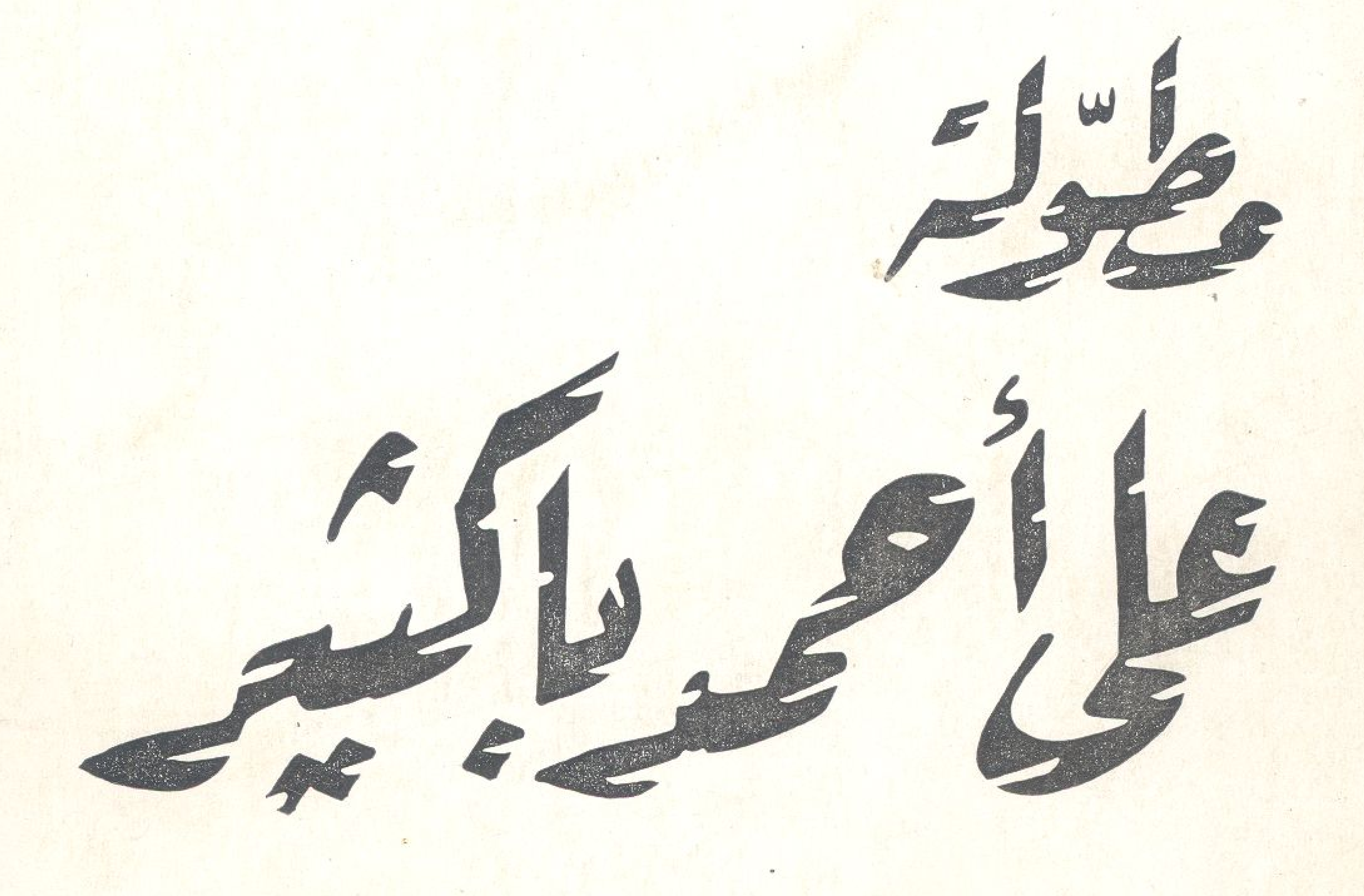
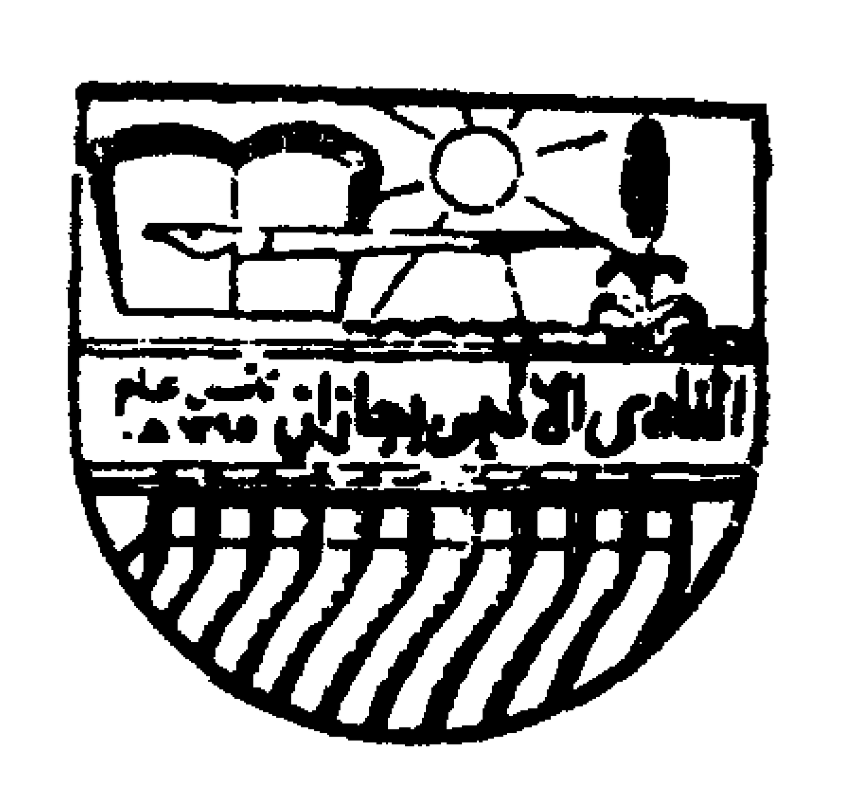




محـــــاضرة

بقلم : الأستاذ حلمي محمد القاعود

مطبوعات نادي جازان الأدبي



أضواء على أحمد باكثير

محاضرة

بقلم: الأستاذ حلمي محمد القاعود

من مطبوعات نادي جازان الأدبي



ـ ١ ـ

يعتبر علي أحمد باكثير من أنضج الأدباء العرب المسلمين في القرن العشرين ، لأسباب كثيرة منها أنه يملك تصوراً اسلامياً ناضجاً ومستنيراً استطاع الوصول اليه بوعي واقتدار ومثابرة ، ومنها مقدرته الفنية أو موهبته الابداعية التى تجلت في أكثر من ميدان أدبي ، حيث ترك آثاراً على قدر كبير من السمو الفني ، خاصة في تلك الأجناس الأدبية التى لم تكن قد تأصلت بعد في تربة الأدب العربي المعاصر ، ومنها على سبيل المثال : المسرحية والقصة الطويلة ومن الأسباب التى أهّلته ليكون من أنضج أدبائنا المعاصرين ، أيضاً ، جرأته التى تبلغ الحدة في بعض المواقف ، حين يتناول القضايا المطروحة أمامه ، مهما كانت الظروف الخارجية غير ملائمة ، بل مهما كانت معادية ، شديدة العداء .

ومطولة « باكثير » الاسلامية ، والتى نظمها في سن باكرة (الخامسة والعشرين) تعبّر أصدق تعبير عن نضج « باكثير » وتوضح رؤيته المستنيرة للمستقبل من خلال الواقع . واذا كان الحظ لم يتح لهذه المطولة أن تنتشر ، حيث ظلت محصورة في نطاق ضيق لظروف مختلفة ، فان الواجب علينا أن نذيعها على الناس ، ليستشرفوا جانباً هاماً ومضيئا في حياة « علي أحمد باكثير » الشاعر ، والذى ارتسم في أذهانهم من قبل ، ككاتب مسرحي(١) أو قصاص أو مترجم أو كاتب مقالة أو صاحب مواقف مميزة في دنيا الأدب بعامة .

ـ ٢ ـ

من الواضح أن « المطولة » ترسمت خُطاً سابقة ، سار عليها شعراء المطولات في العصر الحديث والعصور التى قبله ، مثل البوصيري والبارودي وشوقي وغيرهم ، وان كنا نستطيع القول بصورة عامة أن معظم هذه المطولات قد خرج من تحت عباءة « البوصيري » أو من بردته بمعنى أدق ، وهي منتمية بدورها الى تائية « ابن الفارض » بصورة أو بأخرى .. لكن « البردة » وقد ذاعت بين الناس ، واشتهرت شهرة عظيمة في عصرنا الحديث ، فان « باكثير » قد بدا متأثراً بالأحرى ب « نهج البردة » التى صاغها شوقي(٢) وغنتها أم كلثوم ، فصارت هينة وسلسة على الألسنة ، والأسماع بيد أن « باكثير » في كل الأحوال ، كان يحاول أن يكون مستقلا استقلالا ذاتياً وقد جاهد في ذلك جهاداً كبيراً ، ونجح الى حدّ ما ، رغم ظهور التأثر من حين الى آخر .

وكانت محاولة الاستقلال الذاتي واضحة بكثير في أكثر من مقطع من مقاطع القصيدة ، وهي تُنبيء بصورة أو بأخرى عن موهبة نامية ، آثر صاحبها أن يسوح داخل القصة التاريخية أو المسرحية ليحقق شوقاً متقداً ، يناديه دائماً لمعالجة قضايا الاسلام الراهنة من خلال التأريخ العريق ، وقد حقق شوقه باقتدار ، وسجل موقفاً مشرّفاً لالتزام الأديب المسلم تجاه واقعه ومستقبله وماضيه أيضاً .

ان « ميمية » « باكثير » تتميز في صورتها العامة بحس مرهف تجاه التأريخ والعقيدة ، كما أنها تدرك بجلاء تلك المؤامرات

الخبيثة التى أضرمت في جنبات الواقع الاسلامي مستترة ، وظاهرة مما اضطر « باكثير » أنه ينسى « الشعر » أحياناً ، ويقف محاوراً في ندوة عقائدية ، وليس في قصيدة شعرية ، ولكنه كان يتذكر في معمعة الحوار أنه يؤدى دوراً آخر ، فينسحب الى القصيدة ، مستضيئاً بهدي ايمانه الى الاستمرار في الانشاد الحزين والثائر .

- ٣ -

وذات يوم في عام (١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م) ذهب « باكثير » الى الكعبة الزهراء ليُؤدى فريضة الحج وهناك أُخذت نفسه ـ كما يحدث للكثيرين ـ تخرج أثقالها ، وتلقى بها خارج الحرم الشريف، ثم تفيض في البث والشكوى ، وتتخلص تماماً من كل الشوائب والأكدار ، وتبتهج بالمستقبل القادم ، مهما كانت الشقة ، وكانت الشدّة ، وكان الضرام .. لقد رأى نجمة الأمل في الظلام والبرد والشك والارتياب ، ومن هنا كان مطلع « الميمية » منذ البداية يعلن استقلاله الذاتي فنياً عمن سبقوه :

يا نجمة الأمل المغشيِّ بالألمِ
كونى دليلي في محلولك الظُلَمِ
في ليلة من ليالي القرّ حالكة
صخّابة بصدى الأرواح والدِّيمِ
دجى تتالى كأمواج المحيط ، بها
عقلي وقلبي وطرفي ، كل ذاك عمى
أكاد أرتاب في نفسي فأنكرها
لولا مسيس جسمي غير متهم
في تعنُّف هائل جَمّ مزالقه
رهن الحياة به في زلة القدمِ(٣)

اننا أمام حالة خاصة شديدة الخصوصية ، تتحدث عن واقع مدلهم شديد الظلام والبرد ، يجعل العقل والقلب والطرف في عمى وحيرة وشك وتخبط ، وبذلك انخلع « باكثير » عن النمط الموروث في تلك المطولات والذى يبدأ بالنسيب ويعبّر عن ولعه « بالريم »

الذى أحلّ سفك الدمّ في الأشهر الحـرم ، كما نرى عند شوقي ، أو الطلب من « زائد البرق » أن ييمم شطر دارة العلم ، ويحدو الغمام الى حيّ بذى سلم ، كما نجد عند البارودى ، أو مزج الدمع بالدم عند تذكر جيران بذى سلم ، كما نطالع لدى البوصيرى(٤) .

ان الحالة الخاصة هنا تقودنا الى عالم آخر يعيشه الشاعر بكل كيانه ، ويطرح من خلاله هموماً شخصية « تمتزج » بهموم عمومية يفصح عنها الشاعر فيما بعد ، ويسهب في ايضاحها ، ويلح عليها لدرجة أنها تنسيه « الشعر » أحياناً وتعرضه للمؤاخذة النقـدية بوقوعه في النثرية ، والجنوح الى الجدل والمحاجّة كما سنرى .

بيـد أن « باكثير » يوهمنا أنه على طريق من سبقوه وأنه وفيّ لمطالعهم ، حين يلوى عنقنا بنداء (نجمة الأمل) مرة ثانية لتُشرق وتُنير له السبيل لأنها « الحياة » ولأنها السبيل الى اتســاع مضايق العيش :

فأشرقي وأنـــيرى لى الســـبيل فمـــا
لى غــير نـــورك مـــن منجى ومعتصمِ
أنتِ الحيـــاة ولولا أنتِ ما اتســعت
مضـــايق العيش بـــين الهـــم والسقمِ
تُلوّحـــين لِمَن ضـــاقت مذاهبُــــه
وأوشـــك العيش يلقيــــه الى الرجمِ(٥)

ولكنه في البيت الأخير يمهـد لنتخلى عن « الوهم » الذى صـنعه بخطابه لها ، وبتأكيد هذا الخطاب بالضمير (أنت) مرتين في البيت الثاني ضمن الأبيات الثلاثة السابقـة . لقـد ظننا (نجمة الأمل) رمزاً للحبية التى يتغزّل بها الشعراء في مطلعهم الموروثة ، ولكنها الآن على وشك التحـول الواضح الى « نجمة الأمل » الذى يرجـوه

جميع الناس في حياتهم وآخرتهم ، الأمل الذى يمنح الكل ، الصبر وطول الانتظار حتى تتحقق مطالبهم وأهدافهم ، ولعل استيقاظ الشاعر على (رؤية الأماكن المقدسة) جعله يفيق عن معاقرة أشجانه وأحزانه وظلماته ، ليدرك رحابة الوجود من حوله ، وليحوّل « الأمل » الى واقع ملموس يتخطى الصعاب والعقبات والضيق والقهر النفسي :

فهذه نوبة في الحال زائلة
ودون بضع خطى ما رمته فَقَمْ
والوهم أمتن أسباب الحياة له
آثاره في سرور الناس والألم(٦)

ولكن النوبة تعاود الشاعر وتلحّ عليه ، فيأبى الا أن يذكرنا بما يجيش في داخله من همّ كالبركان ، وانه صاحب قضية خطيرة ، ورسالة عظيمة ، وهاهو ـ ولا غرو ـ جدير بحملها ، فالهموم ـ كما يقول ـ رسالات من الهمم :

يا ويح قلب بجنبي لا هدوء له
يجيش بالهم كالبركان بالحمم
يئن من ثِقَل الآمال تبهظه
ان الهموم رسالات من الهمم(٧)

وبذا تتحدد خصوصية المطلع لدى « باكثير » الذى يتجاوز الأنين والنواح والاستسلام اليائس « للريم » أو جيران ذي سلم ، الى التعبير الصافي عن أحاسيسه الصادقة وأحزانه الحقيقية بالمخاطبة المباشرة لـ « نجمة الأمل » لتنير له الطريق المظلم والقاتم والمقرور ، فهو يحمل رسالة هامة ويريد أن ينقلها الى الآخرين ، الذين هم بالضرورة صانعو أحزانه ، وأشجانه .

واذا انتقلنا الى الرسالة ، فسوف نجدها باختصار « شديد » تتحدث عن الآخرين - أو العرب بلفظ آخر - وهم اسّ المشكلة وأساسها . ان حالتهم الراهنة منذ خمسين عاماً ، أقضت مضجعه ، وأرّقته ، وجعلته يراهم في صحوه ويقظته ، ورحيله وسفره ، وصلاته وحجه ، وشعره ونثره .. انهم يلحون عليه بطريقة غير عادية فاذا نظر اليهم على مستوى الدنيا بأسرها ، فانه يجدهم قابعين داخل « الأحقاف » وطنه الأول والصغير(٨) ، نفس النوعية، نفس المحنة ، نفس الألم . ولكنهم جميعاً على كل حال ، تحولوا الى رواية (بؤس) يعرضها الدهر ، ويتقاسمهم الغرب كالشياه والأنعام ، أما دينهم فقد أصبح فريسة للأعداء :

أرنو الى - يَعرُب - والدهر يعرضها
رواية البؤس بعد العزّ والنعمِ
تقاسمتها شعوب الغرب تدفعها
الى المهالك سوق الشاء والنعمِ
وأرمق البين والأعداء توسعه
فتكاً يضاف الى أدوائه القُدُمِ(٩)

وكأنه حين يعود الى (الأحقاف) يريد أن يأخذ على طريقة الباحثين الاجتماعيين شريحة من المجتمع ، ويتبين من خلالها العلل والأسباب التى دفعت بيعرب الى أن تكون (رواية بؤس) انه تشبيه طريف وسافر ، وقاتل - وكالعادة يتصدر الجهل قائمة الأدواء ، تليه الفوضى والظلم والترف والفسق والتفرق ، والاِحن :

وأُرجع الطرف الى (الأحقاف) غارقة
في الجهل ، فوضى بلا عدل ولا نُظُمِ

تفنّنت في ملاذ العيش ، تاركة
ما تقتضيه ، فلم تفطر ولم تصمِ
والخلف محتكم فيها ، يمزّقها
حتى يغادرها لحماً على وضمِ (١٠)

وهكذا يطرح الشاعر الهم السياسى الحضاري على الأشهاد بوضوح وحسم وأسى عميق ، ويصبح هذا الهم محور القضية التى احتشد لها بكل كيانه ووجدانه وأشواقه ، ويتمازج الواقع النفسي (داخله) مع الواقع السياسى والحضاري من (حوله) ، ويحدث أمامنا هذا الضرام العنيف ، بين الشوق الى المثال أو (العلياء) وبين العجز والخمود الساكن في قرارة الواقع .. ان الشاعر يبدو واقفاً على الحافة ، ومضطرباً ومهتاجا وحانقا ومغيظا وأسواناً ، وحزيناً :

كيف القرار على حال يذوب لها
قلب الكريم ويجرى دمعه بدمِ
ياليت شعرى ؟ أللعلياء من سبب
ألفيه يقذفني منها الى القممِ
شوقي اليها وعجزى عن تسلقها
يعذباني ، عذاب الويل والضرم(١١)

ان الدمع الذى يمتزج بالدم ، ليس من أجل (الريم) ولا من أجل (جيران ذى سلم) ولكن من أجل الخروج من وهدة العجز والخمود ، فليس هو الشاعر المتيّم أو الشاعر المترف الباحث عن متعة خاصة ، بل هو الذى يمضى قُدماً نحو غاية نبيلة ، ومثال أعظم . بل انه يرى « الحب » في معناه الأرحب والأشمل الذى يتجاوز المحبوب « المرأة » الى العالم الأوسع والأكبر ، رغم انه عرف هذا الحب مع زوجه التى رحلت في شرخ الصبا والشباب ، فهو

قد عرف أن الحياة بلا حب ، خروج وشذوذ عن فطرة الله ونوع من العدمية والعبثية :

والحب يقصـــر من خطوي ، وهــل عــرفت
(معبـــودة الحب) مثــلي ، عابداً صنمي
أوفى وأقـــوم في هجـــر وفي صـــلة
مني بحفـــــظ عهـــود الحـــب والذمم
بليت منـــــه بخطب لا عـــــزاء لـــــه
الا اللقـــاء بـــدار الخـــــلد والسَلَمِ
ولـــن يـــزال وطيس الحب في كبــدى
يرمى بـــــذى شرر كالقصــــر مضطرم
وما الحيـــاة بـــلا حب ســـوى جنـــف
عن فطـــــرة الله أو ضرب من العدم (١٢)

ان الحالة النفسية لمسيرة الشـاعر في القصيدة والتى ألحت عليـه منذ مطلعها ، وجعلته يصب نهر همومه في النهر الكبير ــ نهر الأمة ــ حولته الى رواية واع لتاريخنا الاســلامي المجيـد ، وقيامه بهـذا الدور ليس هروباً من حالته النفسية بقدر ما هو استفزاز للمشاعر الخامدة والأحاسيس النائمة ، لكي تفيق على شيء آخر ، أو على شيء نسيتَه ولم تعـد تذكره الا نادراً وربما لا تذكره أبداً وقبل أن يستفز مشاعر الأمة وأحاسيسها ، فانه يبدأ بنفسه لائماً ومعنِّفاً على ما مضى من عمر (خمس وعشرين سنة) لم يحقق من خلاله شيئاً . اذاً ماذا ينتظر ؟ هل مجرد الشيخوخة وحلول الشيب ؟ ان الشيب يحد من الطموح ، ويقلل من الحركة ، بل انه مجبنة ، لكن الشباب هو « براق المجد » والتشبيه هنا قوي وعميق يمتد الى براق النبي صلى الله عليه وسلم . حيث أُسري به الى المسجد الأقصى وعرج الى السموات العلا ، ولا بد للشـاعر ولنـا أيضـاً ــ من ركوب هـذا البراق ــ رمز الانطلاق وترك التردد والنكوص :

ويح الشـــباب ، وقـــد ندت أوائلـــه
والحـــــوض دوني واني لا أزال ظَـمِـي
(خمس وعشرون) لم أدرك بهـــا غرضـاً
مـــرت عليّ ــ مـــرور الطيف في الحلم
يا ويلتـــــاه .. أأبغى أن أســـــود اذا
ولـّى الشـــــباب وما فيـــــه من العرم
هيهـــات ، هيهـــات ان الشيب مجبنــــة
تصــد عمـــا يريـــــد المجـــد من قحم
ان الشـــــباب براق المجــــد يركبـــه
اليــــه كل فــــتى شــــيحان معتزم
فمـــــا وقـــوفك مشـــدوهاً تردد مــــا
بين النــــكوص على الأعقـــــاب والقدم
وقــــد بـــدا لك نـــــور الله متقـــداً
(يوم الوقوف) أمام الواحــد الحــكم ؟(١٣)

وفي البيت الأخير من هذا الشاهد يلوح الأمل قوياً وباهراً فقد بدا له (نور الله) يوم عرفات أو يوم الوقــوف بعــرفات ، حيث يتخلص المسلم من كل الارتباطات التى تشده الى الأرض ليتسامى الى العالم الأعلى ، صافية نفسه طيبة روحه ، قوية عزيمته خالصة ارادته ، وهنا موطن الانفراج ، لكل الأزمات التى يعايشها المسلم المعاصر ، الذي أضناه الخمود والكسل والحيرة والتردد والنكوص . هنا مجال الحركة الخالصة لوجه الله (نور السموات والأرض) الذى ينبغى أن يتوجه اليه النـــاس وحده . وهـــذا التوجه هو حل لـــكل المعضلات والمشكلات التى تواجههم وتستقطب اهتماماتهم وتستولى على أفئدتهم ، ان (باكثير) يحرّض على المواجهة من خلال هـــذا الموقف الذى يتجرد فيه المسلم من الأطماع والشـــهوات والأنانيـــة ويتهيأ لتنفيذ أوامر الواحد الحكم بكل دقة واخلاص ، وهذا يعني

تجاوز الاحباطات التي يعايشها في واقعه الى مرحلة (الانجازات) الظافرة التي تمضي قُدماً نحو تحقيق الغـايات النبيـلة ، ولعـل تصويره لهذه الانطلاقة بعد أن يتحدث عن الجمـوع المحتشـدة في عرفات واللاجئة الى الله بالتوبة والنـدم ، والمشـاهدة لذكـريات طه سيد الأمم ، عليه الصلاة والسلام ، توضح لنا شوقه الى الظفر والانتصار في عالم الاسلام الصافي :

فاجمـــع متاعك واركب ظهر ســـابحة
هـول ، تســـير بـــلا رحــل ولا لجمِ
تجـــرى فتبصـــر بالأشـــياء مدبـــرة
تنفســاً عن شـــواظ منـــه محتدمِ (١٤)

انظر الى (اجمع متاعك) و (اركب ظهر سابحة و (تسير بلا رحل ولا لجم) ، انها تضعنا في حالة تأهب للانطلاق والشـوق الى لقاء (الحرية) بمعناها الواسع ، والا فما معنى السابحة التي تسير بلا رحل ولا لجم (انها سابحة خفيفة الحركة) بالتعبير العسكري ، تحمل المسلم الى عالم آخر ، يحتشد له الشاعر منذ بدأ انشاده في هذه المطولة ، ويريد أن يقف أمامه وقفـة طويلة متأنيـة ومتأملة ومدققة فلم يعد هناك مفر من الوقوف أمام هـذا العـالم ليضيىء عالمنا (المحلولك الظلم) . وبالفعل فقد وقف الشاعر أمام محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ورسالته الخالدة ، وأطال الوقوف .

انها وقفة حضارية ، ووقفة مع الأمل المرتجى . ووقفة مع التاريخ الأزهر ولم تكن وقفة « باكثير » مجرد سرد تعليمي يقص حكايات وأخباراً عن سيد المرسلين ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم تكن كذلك مجرد حشو لمطولة استغرقت زهاء خمسين ومائتي بيت، ولكن القارىء حين يتأمل تركيب القصيدة ، يستشعر ومنذ المطلع ـ وكما أشرنا الى أن صاحبها له قضية وموقف مما يجرى في داخله ويجرى حوله . وقد كان المطلع تعبيراً عن احتدام واضطرام ، وتجيىء الوقفة لتقول لنا تفصيلا : هاهي شخصية محمد صلى الله عليه وسلم بكل أبعادها وملامحها ، ومن خلال شريعته الغراء تعطي الدنيا مدداً لا ينقطع من الأمل والسماحة والحركة الانسانية الظافرة .

تجرى القصيدة على ظهر (سابحة هول تسير بلا رحل ولا لجم) وتيمم نحو (طيبة) دار الهجرة ، ذات المنهل العذب ، والمسجد الميمون ، والروضة الغناء ، حيث خير الخلائق ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهنا يتوجب على المسلم أن يتوقف ويسلم ، ويستجلى السيرة العطرة ليرى الكمال الحقيقي بلا أوهام ولا تخيلات :

هناك حيث يقوم الشوق في خجل
لدى الجلال ، جلال المجد والكرمِ
تبدى ولوعك ؟ أم تذرى دموعك ؟
أم تهفو ضلوعك للآيات ، والعظمِ
وما تبث من الأشواق في حرم
يصاب فيه بليغ القوم ، بالبكمِ (١٥)

وهنا سوف نرى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ينشر الهدى في بلاغة فريدة ، ويلقى نصائحه فيطرب لها السامعون ، ويقضى بين الناس بالعدل ، ويزجي كتائبه المجاهدة ، ويستشير أصحابه في مشكلات المجتمع(٢٦) ، ويلقى وفود الناس ، ويبعث برسائله الى الحكام داعياً اياهم الى الدين الحنيف . انه « خير من يسعى على قدم » لأنه رجل الدنيا وواحدها ، وهو من نسل الخليل ومن فرع الذبيح ، اسماعيل ، ومن عدنان وكنانة ومضر وقريش وعمرو وعبد المطلب ، وعبد الله :

عقد من النسب العالي يفوق على
عقد من الدر والألماس منتظمِ
كأنما الخلق (روض) والرسول به
(خلاصة العطر) من أزهاره الفغمِ(١٧)

وها نحن نرى الدرة العصماء (آمنة) تقدمه للكون فيشرق بنوره الغامر ، ويهتز أهل السموات ، وتغني الحور ، وتُسبِّح الملائكة ، وتنفتح أبواب الجنان ، ويتجلى الله بالرحمات ، يعدّ لأمر خطير هو : الرسالة .

وتتبلور الوقفة الحضارية أمام شخصية محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ لترصد من خلال وقائع حياته ، حركة التاريخ الاسلامي والعقل الاسلامي ، والخلق الاسلامي . انها ركائز الأمل المرتجى لاستعادة المجد الضائع وبناء الحضارة المفقودة . فليست حياة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ شريطاً اخبارياً ينقله الشاعر لنتعرف على وقائع هذه الحياة . وانما المسألة تتعدى ذلك الى التعامل مع الواقع المعاصر من خلال الوقائع التأريخية ، فنرى أكثر من قضية معاصرة تفرض نفسها من خلال تناول التأريخ . ويمكن للمرء أن يرصد قضايا ، مثل : قضية تعليم المرأة ، قضية تعدد زوجات الرسول

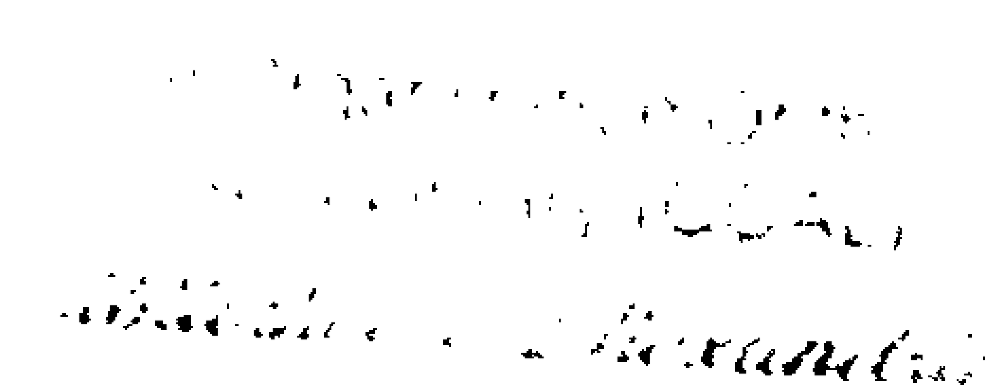
ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قضية المسئولية بين الراعي والرعية ، قضية الاستبداد الديني ، قضية الاسلام والعقل والعلم ، قضية الاعجاز القرآني ، قضية تحريف الكتب المقدسة ، قضية المساواة بين الرجل والمرأة ، أو حقوق المرأة(١٨) .

ان « باكثير » يتناول هذه القضايا في سياق التناول التأريخي ، ليدلل على سبق الاسلام الى الوقوف بجانب الانسان ، سواء كان رجلا أم امرأة ، واتباعه لكل ما يتوافق مع فطرته وطبيعته . بيد أن الأهمّ في ذلك كله هو جلاء شخصية نبي الاسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقديمه من خلال أطوار حياته المختلفة كصورة تجمع الى الكمال الجلال ، وتجمع الى صفاته الانسانية الفاضلة كل معالم الخلق العظيم ونلاحظ هنا أن « باكثير » قد ركز على الصفات المعنوية دون الصفات الجسدية ، وهذا ادراك متقدم لما ينبغي أن تكون عليه الوقفة الحضارية التى تحمل هموم الحاضر ، أمام شخصية الرسول الأعظم ـ صلى الله عليه وسلم :

ولم يكن ملكاً ، لكنه بشر
فاق الملائك بالأخلاق والعظمِ
العصمة الحق من أدنى مناقبه
اذ كان في خلقه العلوى في عصممِ(١٩)

ان أهم ما يميز هذه الوقفة الحضارية ، هو قدرة الشاعر على أدائها في صياغة مبسطة تجنح أحياناً الى النثرية والرضوخ لمنطق الجدل والمحاجة ، كما سيأتي ، ولكنه يعوّض القارىء ، بل يثرى النص ، بأبيات تمتلىء عفوية وشاعرية ، وتحسب للشعر لا عليه في قوله :

لا يلتقى الذل والاسلام في خلد
أو يمكن الجمع بين الماء والضرم(٢٠)



أو في قوله :

العـــلم آياتـــه ، والعقـــل حجتـــه
والعـــدل شرعتـــه في كـــل محتكمِ

جاءت بلاغتـــه لا كالبـــلاغة في
نظامهـا الجـزل أو أسلوبهـا القصمِ

كالرعـــد يقصف أو كالريح تعصف أو
كالبحـــر يرجف في أمواجـــه البهم(٢١)

أو في قوله :

وافى على فـــترة والأرض واجفـــة
ممَّا بها من صنوف الـــكفر والجرمِ

تضجّ بالظـــلم ، لا شرع يقـــوم بهـــا
من الســـماء ولا من واضـــع فقمِ(٢٢)

أو في قوله :

ســـاد الفســـاد وعم الشر وانفجـــرت
براكـــن البغي والشـــحناء والوغمِ

ومـــزقت كتب الرحمـــن وامتهنت
كـــرامة العـــدل والآداب والنظمِ

وأصـــبح النـــاس في فـــوضى لا يســـودهم
الا الزعـــانف ، أهـــل البغي والغشمِ

وعذب النـــاس باسم الدين واســـتلبت
أموالهـــم للقســـوس الفســـق الغشمِ

فكان من حكمـــة المولى ، ابتعـــاث فتى
يهدى شـــعوب الورى للمنهـــج اللقّمِ

أو في قوله :

حـــتى اذا انتهـــكت لله حرمتـــه
رأيت غضـــبة ليث هيـــج في الأجمِ

سرّ الشجاعة ، فصل من شجاعته
اذا الجموع تلاقت والوطيس حمى
يبدو اذا وهت الأركان من جزع
أقوى وأثبت أركاناً من الهرمِ
وربما انفضّ عنه جيشه ، فيرى
كأنه ــ وحده ــ جيش من البهمِ (٢٤)

ان التركيز على عنصر المقارنة الذى يطالعنا في القصيدة ، يتعادل مع الموقف الشعري لدى « باكثير » ، واذا كنا قد ألمحنا فيما مضى الى طفو القضايا المعاصرة من خلال التناول التأريخي فاننا نضيف الى ذلك ، تناول الشاعر للحياة قبل الاسلام بملامحها المتعددة لدى العرب أو على مستوى الدولتين العظميين في ذلك الحين ، وهو ما نراه أيضاً ، متعادلا مع الملامح المعاصرة لحياة الناس ، حيث يعيشون ذات الظروف أو الملامح تقريباً ، ومن هنا ندرك ثقل الهم الحضاري الذى يثقل صدر وعقل ووجدان شاعرنا « علي أحمد باكثير » منذ نصف قرن . وندرك أيضاً سر الوقفة الحضارية التى طالت أمام شخصية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والتى ركزت على صفاته المعنوية . انه حنين بل احتشاد للبعث ، أو للانبعاث الحضاري اسلامياً وللخروج من المحنة التى يعيشها المسلمون في أيامهم الراهنة . ويكون الشاعر بوقفته الحضارية واحساسه الذاتي ، قد تهيأ ليعالج ما عليه المسلمون الآن من تفرق وتشرذم وشعوذة وكذب وتخلف ولهو وجهل وغفلة ولؤم .

- ٦ -

لقـــد غـــدت أمة الاســــلام ذاهـــلة
منهـا القلوب فأضحت (قصة الأممِ)(٢٥)

تلك هي القضية أضحت أمة الاسلام (قصة الأمم) يتنـاوبون الجلوس أمامها ، ويتشاركون في التهامها بشراهة مفجعة ، بعد أن كانت قلوب هذه الأمم المعادية ترتجف خـوفاً وهلعاً ، كلمـا ذكر أمامها اسم دولة الاسلام .

ومن أجل هذه القضية المأساة ، كانت وقفة الشاعر أمام شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ يسـتجلى ملامحهـا ، ويوضـح مناقبها . ليدرك الخلفُ الطالح سيرةَ السلف الصـالح بقيـادة نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام . وما كان لهذا الخلف ان تتجمع عليه الأمم من كل جنس ولون ، لو انه تنبه لتعاليم هذه القيادة واستفاد بتحذيراتها التى وردت في الأحاديث الشريفة تنبيء بهذه النهـاية الأليمة لكل من يولي وجهه ، عكس وجهة الاسلام ، ولكل من يتزيا بالاسلام عباءة ، دون أن يضيء الاسلام في داخله احساساً وانفعالا وايماناً . . وقد كان للنبوءة أن تتحقق ، حيث :

لم يبـق فيهـا من الاســلام وأســفا
الا اســمه وبهـــا معنـــاه لم يسمِ
قامت حجـــاباً كثيفـــاً دون دعـــوته
بمـــا اليه ســقوط المسلمـــين نمى
حاكتـك في صـور الأعمـــال تتبعهـــا
وما اقتـــدت بك في عـــزم ، ولا هممِ

ولا كمـــال ولا صـــدق ، ولا خـــلق
ولا اجتهـــاد ولا عـــز ، ولا شممِ
ولا تقـــوم الى القـــرآن ، تقـــرؤه
الا أمـــالي بالألحـــان والرنمِ
كأنمـــا أنـــزلت آي الـــكتاب لـــكي
تتـــلى عـــلى شرب راح أو عـــلى رجمِ
تبـــدلوا منـــه كتبـاً لا حيـــاة بهـــا
كأنمـــا عـــكفوا منهـــا عـــلى صنمِ
تحكي نواويس مـــوتى جـــبرت زمنـــاً
فـــلا ترى بـــين أجســـام بغـــير دمِ(٢٦)

وهنا نشعر بلذعة الحرقة واللوعة والأسى والحسرة ، ونطالع في الوقت ذاته هجوماً ضارياً وعنيفا عـلى هـذا الواقـع المهترىء والمتعفن ، والذى تحول الى شكل بلا مضمون وصورة بلا محتوى ، حتى انتهت معالم الحياة الفكرية والعقلية الى مومياوات محنَّطة ، وتحول القرآن الكريم الى مجـرد آيات تتلى في المناسـبات منغمـة ومرنمة ، دون أن يتدبرها أبناء الأمة ، ويعملوا بها نصاً وروحاً . بل وصل الأمر الى استبدال كتب جامدة وميتـة بآياته وسـوره ، وهذه كارثة ما بعدها كارثة ، فهنا يكون الموت حضارياً وتاريخياً ومستقبلياً ، وتتراجع ملكات الانجاز والابداع والابتـكار ، ولا فرق في هذه الحال بين جاهلية قديمة ، وجاهلية جديدة فالكل عاكف على صنم أو أصنام .

ان المأساة التي يراها الشاعر على مسـتوى الوقفـة الحضـارية تتلخص في أمرين . أولهما : الجمود والاستسلام للنصوص الميتة ، وخنق العبقريات ، وقتل الملكات والمواهب ، ثانيهما : السقوط في محضن الغرب ، والاستسلام للحضارة الوثنية المعاصرة بتصوراتها

التدميرية واللا انسانية . وسبب هذه المأساة في كل الأحوال هو « الضعف » ولا شيء غيره :

تبدلوا منه كتباً لا حياة بها
كأنما عكفوا منها على صنمِ
تحكي نواويس موتى حبرت زمناً
فلا ترى بين أجسام بغير دمِ
عدوا المشائخ أرباباً بعدِ هم
أقوالهم كنصوص الواحد الحكمِ
وآخرون أصاروا الغرب قبلتهم
فهم بها غير طواف ومستلمِ
رأوا أوربا فراحوا يكفرون على
جهل بدينهم الموروث والشيمِ
وأنكروا مجد آباء لهم شهدت
لها فحول رجال الغرب ، بالقدمِ
وما لذلك غير الضعف من سبب
فالضعف أصل جميع البؤس والنقمِ (٢٧)

ويصبح الصراع بين الغرب (الطامع) والشرق (الضحية) امتداداً لملامح الهم الحضاري ، الذى يؤرق « علي أحمد باكثير » فأمته معرضة للاندحار الكامل لأن الغرب يقظ وصاح ، ويعمل بجد واستمرار لالتهام فريسته (الاسلامية) أما الفريسة .. أما العرب ، فهم في غفلة ولا مبالاة ولا اعتبار بما جرى من قبل ، بل يركزون همهم الأول في التلاحي والتباغض والتناحر والتعادى والعدو (الطامع) يرقب ما يجرى بانتباه ووعي :

يارب رحماك ان الغرب منتبه
والشرق مشتغل بالنوم والسأمِ

والعـــرب في غفـــلة عمـــا يهـــددها
لم تعتـــبر بليـــالي بؤســـها الدهمِ
يا ويحهـــا ، تتعـــادى ، والعـــدو على
أبوابهـــا يرقب الأحـــداث عن كثمِ
والوقت أضـيق والأحـــداث في عجـــل
تبنى وتهـــدم والآفـــات كالديمِ(٢٨)

ويتواصل الهم الداخلي في نفس الشاعر مع همه الخارجي حين يتهيأ للتوسل والشفاعة والرجاء وطلب النجدة الالهية ، فيرى نفسه سعيداً ، بل هو السعيد اذا سعدت أمته . وكأن سعادة الأمة تعنيه وحده ، ولا تعني أحداً سواه . وأيضاً ، فان انحطاطها أو سقوطها مصدر شقائه وعذابه :

أنا الســـعيد اذا ما أمتي ســـعدت
حـــالا ، وفي ذلهـــا ذلي ومهتضمي
اذا أملـــت ففي آمالهـــا أمـــلي
وان ألمت ففـــي آلامهـــا ألمي(٢٩)

وكعادة شعراء المطـولات الاسـلامية حين يختتمون قصائدهم ، فانهم يوقفون الخاتمة على « الابتهـال » والوقوف في « ضراعـة » والنداء بـ « توسل » واستنفار جميع الأساليب والأدوات الملائمـة لهذه الغاية ، لعل قبـولا من الله سـبحانه يكـون من نصيب هـذه التوسلات والضراعات والابتهالات .

ويكرس « باكثير » في خاتمته كل مكنوناته الروحية والنفسية والعقلية لصالح أمته ومن أجـل الاسلام أو بمعنى أدق من أجـل البعث الاسلامي والحضاري لأمة طحنتها الأحداث ، وتقاطرت عليها الأمم ، وتحلقت حـولها وراحت تنهشها . وينادى « باكثير » ربه طالباً منه ، ومتشفعاً بخير الأنام ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يجير أمته من الصمم ، وأن يبث فيهـا روحاً وثّابة تنهضـها وتنشر علمها وتطهر الكون من الرجس والفسوق والظلم والمحن ، لأن هذا دواء الكون مما فيه :

يارب ياصاحب العـرش العظـيم ومن
تحـي الارادة منـه دارس الرممِ
بمـا بعثت به خـير الأنام ، أجر
يارب ، أمتـه من صـمة الصممِ
ولقهـا منـك روحاً لا يغـادرها
الا وقـد نهضت منشـورة العلمِ
تطهـر الـكون ممـا فيـه من رجس
ومن فسـوق ومن ظـلم ومن أزمِ
فـلا دواء لـه ممـا يكابـده
الا هـداية الرسـل .. كلهمِ(٣٠)

ثم يثنى بالدعاء لنفسه ، ليملأ الله فـؤاده نوراً ويجعل عزائمه ممزوجة بدمه ، ويقدر له الخير ويرزقه الشفاعة يوم الهول ، ويبل ريقه في هذا اليوم من حوضه ، ويغفر ذنوبه وذنوب أبيه ووالدته وزوجته ، وذوى قرباه ورحمه .

وبعد الدعاء لنفسه وآله ، يأخذ في الصلاة والتسليم على خـير نبي ، وصاحبه أبي بكر ، ثم يطلب الرضاء لعمر الفاروق ، القوي العادل ، والمقوض لدولتي الفرس والروم ، وعثمان ذى النورين، أخشع من قرأ القـــــرآن ، ومجهـــز جيش العسرة ، وعلي أبى الريحانتين ، وبطل الأبطال ، وسيف النبي ، وامام الشجعان ، ثم السلام مرة أخرى على (طه) وعترته وآله ، والبتـول الـكبرى (فاطمة) وولديها الحسن والحسين ، والأزواج العصم :

واختم بمســـك تحيـــات يفـــوح على
(محمـــد) خـــير مبـــدوء ومختتمِ
ما أومض البرق في الظلمـــاء من أضـــم
وما عطـا الريم بين البـــان والعلمِ (٣١)

ولا بد أن يكون القارىء قد أحس بشيء ما ، يشده شدأ ، بل يلوى عنقه بقوة ، تجاه ما أثاره نشيد « باكثير » الطويل منذ هتف في المطلع :

يا نجمــــة الأمـــــل المغشي بالألــــم
كــــوني دليـــــلي في محـــــلولك الظلمِ

حتى وصوله الى « مسك الختام » و « ايماض البرق » في الظلماء من أضم ، وعطاء « الريم بين البان والعلم » مُصراً على أن يذكرنا بسابقيه في هذا الميدان وهما «البوصيري» و «شوقي» رحمهما الله .

ان نشيد « باكثير » الطويل قد حمل عاطفة جياشة واحساساً متوقداً ، وشعوراً مرهفاً ، أشعله أكثر وأكثر وجوده بالقرب من الأماكن المقدسة في مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وها نحن نرى ملامح ذلك في أبياته تنبيء عن نفس مشــوقة الى بعث جـديد ، وانتصار جديد ومجد جديد .

ولا يمكن للقارىء الا أن يستشــعر مدى التمــايز بين البردة ونهجها من ناحية ، وبين قصيدة « باكثير » من ناحية أخرى . وكنا قد أوضحنا من قبل استقلاليــة مطلع « باكثير » وتفرده بالتعــامل المباشر مع الهم الذى يحمله والأمل الذى يحلم به . ولكن نظــرة شاملة الى القصيدة توضح ذلك الاتساق الشعورى الذى يسيطر على أبيات القصيدة منذ بدايتهــا حتى نهايتهــا .. واذا كانت الأجزاء تعالج قضايا فرعيــة الا أنهــا تصب في النهــاية داخــل القضــية

الأساسية ، وهي قضية الانبعاث الحضاري الاسلامي الذى يحلم به كل مسلم مع «باكثير» . اننا نجد توظيفاً متكاملا بين المطلع الحزين والثائر ، وبين رصد الواقع المحزن للأمة الاسلامية ، وبين الوقفة الحضارية ، من خلال الماضي والواقع والمستقبل ، لشخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين الانتقاد الشديد للانفصام والجمود والتحلل ، وبين الرجاء والتوسل والشفاعة من أجل الانبعاث وعودة المجد والعزة .

ان المرء يشعر بأنه ازاء قضية أساسية تشغل بال وعقل وفكر ووجدان الشاعر ، ولذلك جعلته يركز كل همومه على معالجتها وايضاحها ، وان أنساه ذلك أحياناً أنه في عالم الشعر ، وليس في عالم الجدل والفلسفة والتأريخ . لقد اضطرته القضية الى التحول في أحايين معينة الى التضحية بالقيمة « الشعرية » في سبيل القيمة « الموضوعية » ، أو بمعنى آخر بالصدق « الفني » لحساب الصدق « العملي » ـ ان صح التعبير ـ . ومن ثم ، فقد رأيناه يطالعنا بأبيات قد خلعت ثياب الشعر كلها اللهم الا ثوب العروض والقافية فقط ، فقد ظل يقعقع في آذاننا ، بصورة مزعجة وعقيمة ، ولنقرأ:

هذا ، على ان (طه) قد أتيح له
منهن شيء كثير ليس في الأمم
مثل العروج ، ونبع الماء من يده
وهزم جيش ، برمل من يديه رمي
والجذع حن ، والاخبار عن غيب
بموتهم ثم والتكفير للوثم
وغير ذلك مما جاء عن عرض
لا للتحدى ، فشمس الحق لم تغم
صحت أسانيدها لا كالتي رويت
عن سائر الرسل لم تثبت لمتهم

ولا ســـبيل الى اثباتهـــا بســـوى
هـــذا الـكتاب الكريم الشاهد الحكمِ(٣٢)

ولنا أن نلاحظ ، استسلام هذه الأبيات الى جانب القص أو الحكي التأريخي الرتيب ، وهو ما لا يختلف كثيراً عن القراءة في كتـاب تاريخي نثري يروى هذه المعجزات وغيرها . فضـلا عن جفافهـا وشحوبها وتقريريتها . ونلاحظ أيضاً استخدام اسم الاشارة(هذا) .. لمتابعة القص التأريخي واضطرار الشاعر الى الحشو لاستكمال الأبيات والوصول بمشقة الى القافية .

ولكن « علي أحمد باكثير » يقدم في المقابل ، حـين ينفرد بهمه تاركا القضايا التأريخية والاجتماعيـة ، شـعراً فياضـاً وعفوياً وأخضر ، كما أوضحنا فيما سلف ، وكما طالعنا في المطلع على وجه الخصوص . ويمكننا هنا أن نعيد بعض النماذج للتأكيد ، يقول عن نجمة الأمل :

أنت الحيـــاة ، ولولا أنت ما اتســـعت
مضـــايق العيش بين الهـــم والسقمِ
تلوّحـين لمـــن ضـــاقت مذاهبـــه
وأوشـــك العيش يلقيـــه الى الرجمِ
ان هـــذه نوبة في الحـــال زائلـــة
ودون بضـــع خطى ما رمتـــه ، فقمِ
والوهم أمتن أســـباب الحيـــاة لـــه
آثـــاره في ســـرور النـــاس والألمِ
يا ويـــح قلب بجنبي لا هـــدوء لـــه
يجيش بالهـــم كالبـــركان بالحممِ
يئـــن من ثقـــل الآمال ، تبهظـــه
ان الهمـــوم رســـالات من الهممِ(٣٣)

وعن أشجانه تجاه « الأحقاف » وما فيها من آلام ، يقول :

وارجع الطرف في « الأحقاف » غارقـــة
في الجهـــل فوضى بلا عـــدل ولا نظمِ
تفننت في مـــــلاذ العيش تاركـــة
ما تقتضـــيه ، فـلم تفطـــر ولم تصمِ
والخلف محتكم فيهـــا ، يمزقهـــا
حتى يغـــادرها لحمـــاً عـــلى وضمِ
كيف القـــرار على حال ، يـــذوب لهـــا
قلب الـــكريم ، ويجـــرى دمعـــه بدمِ
ياليت شـــعرى ، أللعليـــاء من ســـبب
ألفيـــه يقـــذفني منهـــا الى القممِ
شـــوقي اليهـــا ، وعجـــزى عن تسلقهـــا
يعذباني ، عـــذاب الويـــل ، والضرمِ (٣٤)

وعن « الروضة » الشريفة ، ومشاعره تجاهها يقول :

هناك حيث يقـــوم الشوق في خجـــل
لدى الجـــلال ، جـــلال المجـــد والكرمِ
تبـــدى ولوعـــك أم تذرى دموعـــك أم
تهفـــو ضـــلوعك للآيات والعظمِ
وما تبث مـــن الأشـــواق في حـــرم
يصاب فيـــه بليـــغ القـــول بالبكمِ (٣٥)

يتيح بحر « البسيط » بتفعيلاته ، وما تجيزه من خبن وقطع في تفعيلاته وضربه وما توجبه من خبن في عروضه ، فرصة للحركة الطليقة ، يندفع بها الشاعر الى التعبير عن مشاعره ، وانفعالاته ، خاصة أمام موضوعات ثرة وغنية وزاخرة ، كهذا الموضوع الذى يعالجه « باكثير » ويحشد له وفيه كل امكاناته التعبيرية والذهنية والوجدانية . ولعل هذا هو ما أتاح له أن يجنح أحياناً الى التعامل مع القضايا التى تلح عليه بصورة مباشرة وصارخة ، دخلت به الى مجال الجدل التأريخي ، حيث يعرض الاتهامات ويرد عليها بالأدلة الدامغة والقاطعة التى تؤيد وجهة نظره ، وموقفه الاسلامي الحضاري ، متغاضياً عن الموقف الشعرى .

ولأن هذا البحر كان منطقة العبور الشعري لأصحاب القصائد الاسلامية الطوال ، فقد فكّ شراعه ، وأبحر مع المبحرين والعابرين على صفحة « البسيط » حتى وصل الى مرفأ الوقفة الحضارية ، مع الاسلام .

واذا كان معظم العابرين قد قلدوا السفينة الأولى التى بدأت بالابحار ، أعني « بردة البوصيري » ، فان « باكثير » قد حاول جاهداً أن يمسك (دفته) بنفسه ، وأن يتعامل مع « الريح » وفقاً لتصوراته وتطلعاته واستشرافه للمرفأ البعيد . ان معظم الذين تابعوا « البردة » نهجاً ورسماً ، وتشطيراً وتخميساً ، وقلبوها على كل الوجوه الممكنة للأداء الشعري ، كانوا محكومين بالصورة واللفظة والتضمين والاقتباس والبيان والبديع ، فضلا

عن البناء العام للقصيدة ، كما شاهدوا في « البردة » ولدى أمها الأولى (تائية ابن الفارض) .

ولم يسلم « باكثير » من ذلك(٣٦) رغم محاولته الاستقلال الذاتي ، بل انه كما رأينا من قبل ، يأبى في نهاية القصيدة الا أن يذكرنا « بالبوصيري » و « شوقي » معاً :

واختم بمسك تحيات يفوح على
(محمد) خير مبدوء ومختتمِ
ما أومض البرق في الظلماء من اضم ،
وما عطا الريم بين البان والعلمِ

ويمكننا أيضاً أن نقول ، انه تأثر في أبيات كثيرة بمن سبقوه ، يقول ، مثلا :

كيف القرار على حال يذوب لها
قلب الكريم ويجرى دمعه بدمِ

وهو مأخوذ من أول بيت في « البردة » :

أمن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدمِ

بيد أننا نستشعر طعماً خاصاً وطريفاً ، لايقاعاته وصوره ، ولنقرأ مثلا بيته القائل :

تبدى ولوعك أم تذرى دموعك أم
تهفو ضلوعك للآيات والعظمِ

انه ايقاع راقص يعتمد على الجناس الناقص (ولوعك ـ دموعك ـ ضلوعك) ، والاستفهام التقريري ، واستخدام الفعل الرباعي (تبدى ـ تذرى ـ تهفو) وهو يشترك في سكون العين ،

ومثله البيت الذى يقول :

كالرعـــــد يقصف أو كالريح تعصف أو
كالبحـــر يرجـــف في أمواجـــه البهمِ

أو بيته الذى يقول :

العـــــلم آياتـــــه والعقـــل حجتـــه
والعـــــدل شرعتـــــه في كـــل محتكمِ

ويلاحظ المرء كثرة التشبيهات والاستعارات في القصيدة واستخدام أدوات التشبيه خاصة « الكاف » وتقوم التشبيهات على أساس من استخدام الصور المألوفة ، ومعظمها يعتمد على ما يمكن أن يندرج تحت « الضوء والظلمة » فتجده يصوّر الاشراق والنور وظهر النهار ، ومحلولك الظلم ، والدجى المتتالية ، والشرر .. الخ . ولكنه يتجاوز عالم النور والظلمة الى مجالات أخرى ، فنرى (الأحقاف غارقة) ، و (العرب قصعة الأمم) ، و (يعرب رواية بؤس يعرضها الدهر) ــ وهذه صورة مسرحية ان صح الوصف ــ و (الشوق يقوم في خجل) ، و (الاسلام يوسعه الأعداء فتكاً) ، و (التفرق كتقطيع اللحم على الوضم) ، و (البعث الحضاري كالنشور يوم القيامة) ، و (الأرض واجفة) ، و (القلب بركان) ، و (المحبوبة حياة) ، و (الطريق كحد السيف) ، و (العلياء قمة شاهقة يصعب تسلقها) ، و (الشباب براق المجد .. الخ)(٣٧) . كما نعثر على أنواع من الطباق والمقابلة والجناس ، ولكنها قليلة على كل حال ، كما نرى في « نجمة الأمل المغشي بالألم » و « سرور الناس والألم» و «الهموم رسالات من الهمم» و «شوقي .. وعجزى» و « الغرب منتبه والشرق مشتغل بالنوم » .

- ١٠ -

يبقى أن نقول عن قصيدة « باكثير » أنها توقفت أكثر الوقت عند « طيبة » ذات المنهل الشبم ، ولم تتوقف عند « مكة » الا « يوم الوقوف » ، ثم صاح الشاعر :

فاجمـــع متـــاعك واركب ظهـر سابحة
هــــول تســـير بـــلا رحـــل ولا لجمِ
تجـرى فتبصـــر بالأشـــياء مدبـــرة
تنفســـاً عن شـــواظ منـــه محتدمِ

وفي « طيبة » كان « باكثير » مشدوداً الى شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكل ما فيها من عطاء وغناء ، وعندها أفرغ كل ما لديه من أشجان وأشواق ، ومعلناً عن أمل يراوده ويراود كل المسلمين وهو « البعث » بكل ما يعنيه من وحدة وتحرر وتفوق في كافة مجالات الحياة ، وقد استطاع بالفعل أن يعبر عن هذا الأمل أحسن تعبير :

لا يلتقى الـــذل والاســـلام في خـــلد
أو يمكن الجمــــع بين المـــاء والضرمِ

■□■

■ الهـــوامش :

(١) كتب « باكثير » المسرحية الشعرية ، ومن ابرز ما كتبه مسرحيــة « همــام او في عاصمة الأحقاف » سنة ١٩٣٣م ، « اخناتون ونفرتيتي » سنة ١٩٣٨م ، وقــد صاغها على طريقة الشــعر الحر ، محاذيا في ذلك ترجمته لاحدى مسرحيات شكسبير حيث ترجمها شعراً مرسلا .

(٢) يبدو تاثر « باكثير » (بنهج البردة) في الجانب البنائي لقصيدته واضحا ، حيث تخلص الى حد بعيد من السرد الوصفي والقص التعليمي ، ونلمح روح « شوقي » تطل في بعض الأحيان من خلال النص .

(٣) الأبيات (١ـ٥) من القصيدة .

(٤) مطلع البردة للبوصيري يقول :

أمـن تذكـــــر جـــــيران بذى ســـــلم	مزجت دمعـــــا جــــرى من مقـــلة بدم
أم هبت الريــح من تلقـــاء كاظمـــة ،	وأومض البــــرق في الظلمـــاء من أضم

اما مطلع قصيدة « البارودي » والمسماة « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » فيقول :

يا رائد البـــــرق يمم دارة العـــــلم	واحـدِ الغمـــام الى حيّ بذى ســـلم
وان مررت عـــلى الروحاء فامر لهـــــا	اخـــلاف ســــارية هتـــانة الـــديم

ومطلع (نهج البردة) « لشوقي » ، هكذا :

ريم على القـــاع بين البـــان والعـــلم	أحلّ ســـفك دمي في الأشــــهر الحرم
رمى القضـــــاء بعيني جـــؤذر اســـدا	يا ساكن القـــاع أدرك ساكن الأجـــم

(٥) الأبيات (٧ـ٩) .

(٦) البيتان (١٠ـ١١) .

(٧) البيتان (١٢ـ١٣) .

(٨) نشا « باكثير » في حضرموت ، وفيها (الاحقاف) حيث عاش فترة طفولته وصباه وشبابه ، وكانت محمية من محميات بريطانيا ضمن (الجنوب العربي ســابقا) وقد هجرها الى مصر ، وقضى فيها بقية عمره .

(٩) الأبيات (١٤ـ١٦) .

(١٠) الأبيات (١٨ـ٢٠) .

(١١) الأبيات (٢١ـ٢٣) .

(١٢) الأبيات (٢٤ـ٢٨) .

(١٣) الأبيات (٢٩ـ٣٥) .

(١٤) البيتان (٣٨ ، ٣٩) .

(١٥) الأبيات (٤٧ـ٤٩) .

(١٦) واضح أن تركيزه على هذه القضايا كان رد فعل لما يعانيه الناس من استبداد وتسلط وعسف .

(١٧) البيتان (٦١ ، ٦٢) .

(١٨) في الأبيات من ٧٣ الى ٢١١ ، معالجة تفصيلية لهذه القضايا .

(١٩) البيتان (٢٠٦ ، ٢٠٧) .

(٢٠) البيت (١٦٠) .

(٢١) الأبيات (١٢٥ـ١٢٧) .

(٢٢) البيتان (٩٩ ، ١٠٠) .

(٢٣) الأبيات (١٠٤ـ١٠٨) .

(٢٤) الأبيات (٨٣ـ٨٦) .

(٢٥) البيت (٢١٣) .

(٢٦) الأبيات (٢١٤ـ٢٢١) .

(٢٧) الأبيات (٢٢٠ـ٢٢٦) ، ويتضح من هذه الأبيات تأثر الشاعر بالدعوات التجديدية في الدين ، كما جاء على يد جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، ثم محمد بن عبد الوهاب . وقد أشار الى ذلك بعض الباحثين عند تناول بعض مسرحياته الشعرية (راجع مجلة « الشعر » العدد ١٧ ـ ص١٢٢) .

(٢٨) الأبيات (٢٢٧ـ٢٣٠) .

(٢٩) البيتان (٢٣١ ، ٢٣٢) .

(٣٠) الأبيات (٢٣٣ـ٢٣٧) .

(٣١) البيتان (٢٥٢ـ٢٥٣) .

(٣٢) الأبيات (١٤٠ـ١٥٠) .

(٣٣) الأبيات (٨ ـ ١٣) .

(٣٤) الأبيات (١٨ـ٢٢) .

(٣٥) الأبيات (٤٧ـ٤٩) .

(٣٦) نجد مثلا في البيت (٤٠) تضمينا لقوله تعالى : (ويخلق ما تعلمون) وفي البيت (٢١٣) أشار الى حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتكالب الامم على المسلمين حين يخالفون منهج الاسلام ويصبحون (قصعة الأمم) ، وفي البيت (٢٧) اشارة للآية الكريمة (ترمي بشرر كالقصر) .

وهي طريقة وضحت لدى «شوقي» في (نهج البردة) حين قال :

ونودي « اقـرأ » تعـــالى الله قائلهـــا   لم تتصـــل قبـــل من قيلت له بغم

كما يتضح التشابه بين « شوقي » و « باكثير » في الأبيات الأخيرة في كل من القصيدتين .

(٣٧) نعثر في بعض الأبيات على صور تتسم بالجدة والطرافة والابتكار والعـذوبة ، فمثـلا نجد ، « والرسول .. خلاصة العطر » و « يبدو اذا وهت الأركان من جزع . أقوى واثبت أركانا من الهرم » و « طه في تبلبله من هولها » و « بلَّ من حوضه ريقي » .

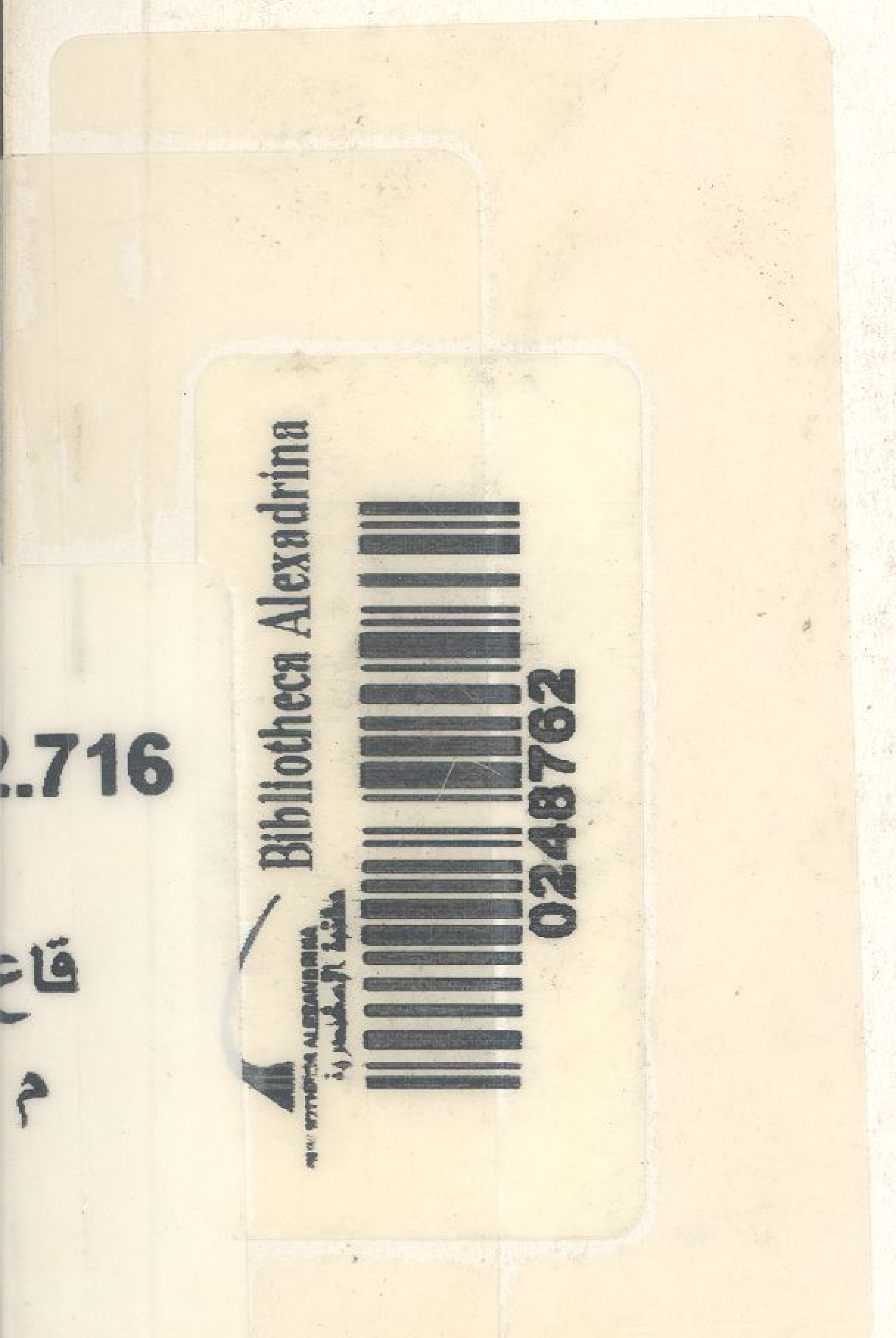
■□■

● مطبوعات نادي جازان الأدبي ●

١ ـ الأدب الشعبي	للأستاذ محمد أحمد العقيلي
٢ ـ الينابيع (ديوان شعر)	للأستاذ محمد علي السنوسى
٣ ـ قصص من الجنوب	لمجموعة من الشباب
٤ ـ أبو سفيان بن حرب	للأستاذ زاهر الحارثي
٥ ـ الأرض والحب	للأستاذ أحمد يحيى بهكلي
٦ ـ مع الشعراء	للأستاذ محمد علي السنوسى
٧ ـ مسابقة الشعر	لمجموعة من شعراء الشباب بجازان
٨ ـ ليلة في الظلام (طبعة ثانية)	للأستاذ محمد زارع عقيل
٩ ـ المعجم الجغرافي لمنطقة جازان	للأستاذ محمد أحمد العقيلي
١٠ ـ نفحات الجنوب	للأستاذ محمد علي السنوسى
١١ ـ طيفان	للأستاذ أحمد يحيى بهكلي
١٢ ـ الصندوق المدفون (قصة)	للأستاذ طاهر عوض سلام
١٣ ـ بين جيلين)قصة)	للأستاذ محمد زارع عقيل
١٤ ـ الآثار التاريخية بجازان	للأستاذ محمد أحمد العقيلي
١٥ ـ الملك المظفر أبو الفداء	للأستاذ ياسر فتوى
١٦ ـ أمسية فلسطين الشعرية	أسرة النادى
١٧ ـ محاضرات في الأدب والتاريخ	للأستاذ محمد أحمد العقيلي
١٨ ـ مطولة باكثير الاسلامية	للأستاذ حلمي محمد القاعود


مطابع الروضة
جدة: عمارة باخشب أمام الهاتف الآلي ت: ٢٧٩٢١


مطابع الروضة
جدة: عمارة باخشب أمام الهاتف الآلي ت: ٢٧٩٢١


Bibliotheca Alexandrina
02448762
.716